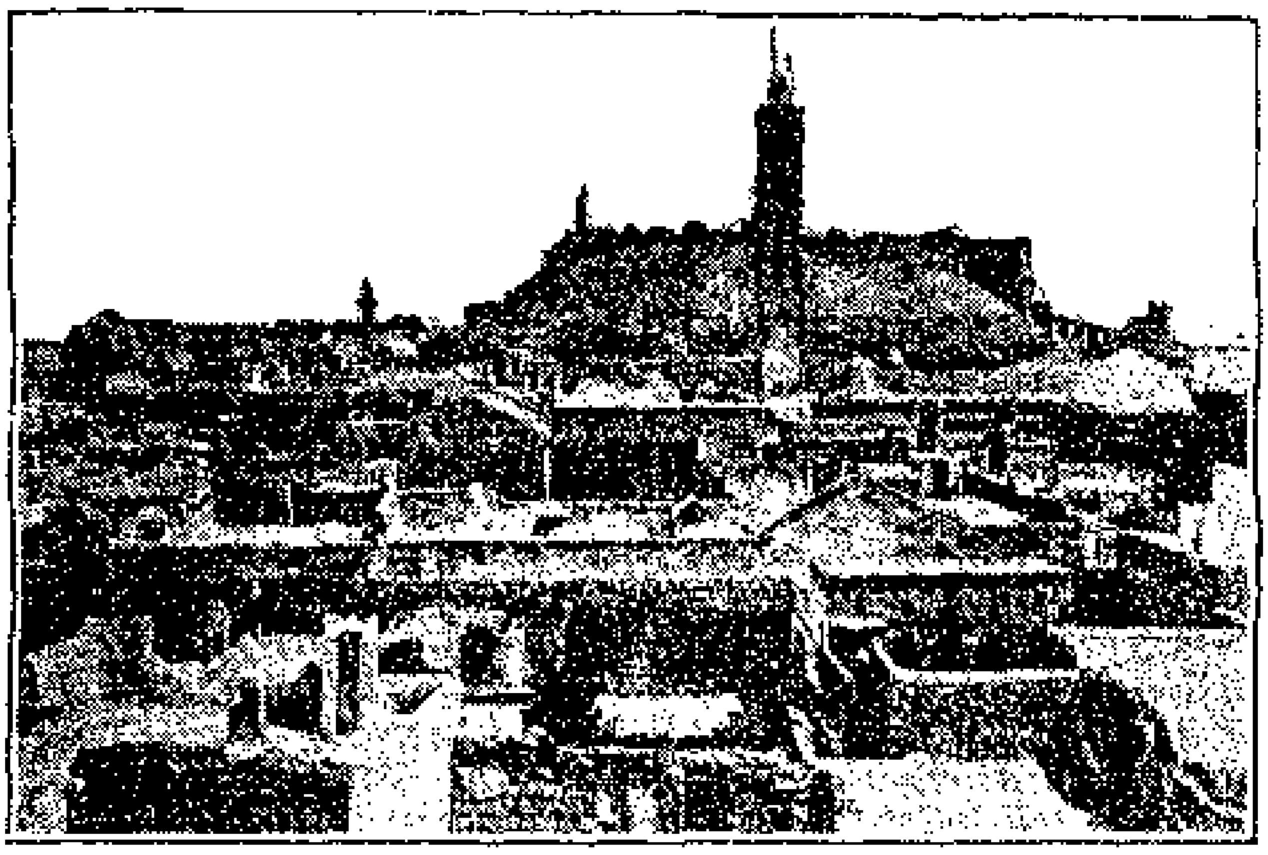

حلب وقلعتها

قلعة الشهباء

هي قلعة شامخة الذرى اكبَّ عليها الدهر وانزلها في الحضيض والسفال ، فعادت اطلالاً بالية ورسوماً دارسة وخرَباً صامتة ، تحدّث الورى بعظمة الجدود وتناجي النفوس بقدرة الخالق في الوجود والكائنات

عندها تقف الالوف طويلاً بين متنزه يلهو بالمادة ، ومفكّر يدرس في كتاب الوجود ، ومعتبرٍ يتأمل بمصير الامور ، ومهندس يشتغل بالمقادير والاشكال ، وراوٍ محقق يستنطق الآثار ليسجلها ذكرى وعبرة للآتين والكل لا يجسر ان يلفظ كلمته الاخيرة في واضع اساسها ورافع ابراجها

على ممرّها اللاحب جرتِ الغُزاةُ غازياً اثر غازٍ ، وتدفقت الاجناد فيلقاً تلو فيلق ، متسابقين متزاحمين متدافعين بين مشتبك القنا وعلى صليل السيوف ، وتحت مثار العِثير ، وعلى هتاف الظفر ونحيط الذعر والاندحار الى . . . مجد النصر ومجد الفتح . الى . . . هوة الابدية ولهوات العدم

فوق حصونها الهائلة كم بكت من مقل وكم سالت من دماء ، وكم تحققت من

آمال وكم خابت من اماني ، وكم انحطت من عروش وكم انعقدت من تيجان ، وكم استرسلت من نفوس الى الحياة . . . الى الخلود . حتى انهزم الوهم مطاردًا امام الحقيقة كما ينهزم الظلام امام الصبح وتطارَدُ الذرات امام الرياح الزعازع

في ثنايا بقاياها الرميمة تختبئ معلولات الدهور من بابل الى آشور الى مصر . ومن مكدونية الى رومية الى بوزنطية . ومن العرب الى الجراكسة الى الاتراك . من قرون الظلمة الى اعصر النور ، وحبُّ السؤدد وحب الانانية دافع الى تنازع البقاء . الى تنازع الاثرة . والدنيا ملأى بالتناقض والشر والاباطيل

على ابوابها وحناياها نقشت الاجيال اسطراً من مثل المؤيد والمظفر والمجاهد والمرابط والعالي المولوي والاميري الشمسي وسيد الملوك وغياث الدنيا والدين ومحيي العدل في العالمين ، الى الفاظ اخرى الّهوا بها المادة وعبدوا اميالها وقدسوا فظائعها فحرقوا لها بخور الضمائر والشواعر فيا للغرور ويا للجهالة . . !

من انقاضها التي بعثرتها ايدي الاحداث وجدرانها التي داستها ارجل الاجيال وانفاقها المنحنية تحت وطأة السنين صدى يتردّدُ في فضائها ويتجاوب في انحائها فيروي تلاطم الاهوآء واصطدام المطامع وما جرَّ احتكاكها والتحامها على الانسان من الويلات والمصائب . . .

هنا معقلٌ شادتهُ ايدٍ طامعة في الخلود ، وهنا هيكل تعبدت فيهِ نفوس فطرت على التدين ، وهنا عقول غشّى عليها الجهل فما ادركت من صفات الالوهية سوى العظمة والجلال ، وهنا امارات وقفت على هذه الخرائب وقوف الحياة على شفير الموت ، وهنا حلقات من سلسلة الانسان مرت امامها كمرور الايام امام الابد القائم

عقبَ الجلبةَ الصمتُ العميق ، وتلا الضجةَ . السكينةُ البالغة ، فلا يقلقها الا حفيف اجنحة الطير ولا يزعجها غير وقع ارجل الحشرات ، وفي هذا الليل الابدي والجمود المطلق تبدو الحقيقة الازلية جلية من خلال زخارف العصور ، وتنجلي الحكمة السرمدية بسنائها المتألق الباهر من طيّات طبقات الاجيال المتلاشية

لفتة الى هذه الآثار ، ووقفة على هذه الاطلال ، وتأمل معي ببقية عادية

طرقتها بوائق الدهور . فمندهـا تتضاءل الطبيعة دون العلة الاولى القادرة ، ومن ورائها تبرز المبادئ السامية بروز الغزالة وهي توآسي البشرية المتألمة وتعزيها في بهرة ارتماضها وتعاستها وتمزق عن ابصارها الحجب الكثيفة المنسدلة على غايتها الاخيرة

فهي الآن كالجبار المسجّى باكفانه البيضاء ، او كالمستغرق في منامهِ المسرور باحلامهِ ، فلن تستيقظ من رقدتها الابدية . وقـد كانت كالحارس الموكل اليهِ الامن والمناضل عن الملك والقطين . فباتت كالخطيب المنذر بالقضاء المنبئ عن المنقلب والزوال ، فيعرف منهُ الحيّ العاقل حقارة البقاء ويتحقق كاذب الآمال

ومنها صوت الطبيعة يرنُّ في اودية القلوب بما يحققهُ الاختبار ان المركب الى انحلال وان الحيوة كالظل والخبر السائر ، او كالسفينة الجارية على الماء المتموج التي بعد مرورها لا تجد اثرها ولا خط حيزومها في الامواج ، او كالطائر يطير في الجو فلا يبقى دليلٌ على مسيرهِ ، يضرب الريح الخفيفـة بقوادمهِ ، ويشق الهواء بشدة سرعتهِ ورفرفة جناحيه ثم لا تجد لمروره من علامة ، او كسهم يُرمى الى الهدف فيخرق بهِ الهواء ولوقته يعود الى حاله حتى لا تعرف ممر السهم (سفر الحكمة ٥ : ٩) ... وقد خطت فوقها يد الاجيال باحرف من نور (هو الحي الباقي)

* * *

من البائن المعروف ان القلعة الموصوفة قد كانت في طرف حلب ينحدر من جنوبها سور يحيط بالمدينة وينتهي طرفهُ الى جانب القلعة الشمالي وهذا السور كان يعرف بالرومي لبناء الروم لهُ ويشتمل على ١٢٨ برجاً ضخماً بقي بعض ابرجة منها الى اواخر القرن الماضي . فأمر جميل باشا المشهور بهدمها فهدمت عن آخرهـا

والقلعة الآن في أواسط المدينة وهي قائمة على ربوة صناعية ركمتها الايدي ، وشادت فوقها القلعة على شكل هرمي او هيئة اهليلجية يبلغ قطر قمتهـا ٥٠ متراً ومحيط قاعدتها ٤٠٠ متر وتعلو عن سطوح المنازل المحاذية لها ٦٠ متراً وعن سطح البحر ٥٠٠ متر وفي اعلى القلعة منارة مسجدها الجامع ترتفع عن سطحها ٤٠ متراً

وجوانب القلعة مسفوحة رصفها الملك الظاهر بالحجارة الهرقلية المنحوتة والآن

قد استولى الخراب على اكثرها . ومن حولها خندق واسع منقور في الصخر الابيض يفصل القلعة عن الابنية المجاورة لها ويُغمر عند الحاجة بالمياه فيتعذر على الجيش المحاصر اجتيازه . وفي قمتها سور يحيط بها كأنهُ الاكليل يعصب هامها قامت فوقهُ بروج ومرامٍ كان الجنود يرمون منها العدو المهاجم باصناف القذائف والسهام وهذا السور قد تهدم فلم يبقَ منهُ الا القليل قائماً ينبئ عن عظم شأنهِ وضخامة بنيانهِ

وعلى جانبي القلعة الجنوبي والشمالي برجان هائلان مربعا الشكل شادهما الامير سيف الدين جكم ولما خربا جدّد بناءهما الملك الاشرف قانصوه الغوري في سنة ٩١٤ — ٩١٥ هـ وهما الآن اصلح حالاً من سائر ابنية القلعة التي استولى عليها الخراب والدمار الى حد التعطيل الفاحش والتشويه الشنيع

ولا يُصعد الى هذه القلعة الا من جهتها الجنوبية ومدخلها متقن الصنعة عجيب البنيان يجتازه الداخل على جسر ممتد الى المدينة يستند على ست حنايا ضخمة مرتفعة . وعلى باب المدخل برجان على جانبٍ من المناعة والضخامة وعليهما نقوش بديعة تزينهما وعلى طولها كتابة عربية من الخط النسخي المملوكي ، تبهر النظر وتستلفت الخواطر ، يُستفاد منها ان السلطان خليل بن قلاوون أمر بعمارة هذا المدخل بعد اهمالهِ واشرافهِ على الدثور في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م)

ولهذا المدخل عدة ابواب يتخللها دركاوات بآزاج معقودة[١] وحنايا منضودة ، وكان لكل باب اسفسلار[٢] ونقيب واماكن لجلوس الجند وارباب الدولة ، وعلى هذه الابواب نقوش وكتابات عديدة جميلة تخلب الالباب ومن حولها شرفات ومرامٍ لآلات الحرب وادوات الكفاح تزيد هذا المدخل العجيب رونقاً وجمالاً

واذا تجاوز الداخل باب المدخل صاعداً الى القلعة ومارّاً بالابواب والدركاوات الواسعة المعابر كثيرة الزوايا المستقيمة ، ينتهي الى الباب الاوسط فيرى على طرفيهِ ثعبانين طويلين يلتفان على بعضهما وفي اعلاه كتابة جميلة مآلها ان الملك الظاهر

---

(١) الدركاوات مفردها دركاه وهو القصر وآزاج جمع ازج وهو بيت يبنى طولا . وكلاهما اعجمي (٢) تعريبه متولي الامر او متولي الحجر

غياث الدين غازي هو الذي حصن القلعة وشاد على مدخلها البرجين السابق ذكرهما وجعل لهُ ثلاثة ابواب من حديد . ولما ينتهي الداخل الى الباب الاخير يرى على جانبيهِ اسدين عظيمين ناتئين ، والى الجانب الايمن مزار يُعزى الى الخضر وكان ينسب للخليل (ابرهيم) يقصدهُ بعض المسلمين ، بالنذور والهدايا

ومتى بلغ الداخل قمة القلعة يبدو لهُ صحنها مركوماً بالاتربة والحجارة الضخمة ويرى ابرجة متهدمة وحنايا متشعثة وشرفات متداعية ، اخنى عليها الدهر فدرست محاسنها وتعطلت زخارفها . وفي أواسط قمتها باب الجامع وعليه انواع الوشي والنقوش العربية . وعلى جانبها الجنوبي دار العز او دار الشخوص لكثرة ما كان فيها من التماثيل والزخارف وفي صحنها ركام من القنابر القديمة ومنها يُدخل الى نادٍ للملك الظاهر طولهُ الشمالي ٢٥ متراً في عرض ٧ امتار وطوله الجنوبي ٢٥ متراً في عرض ١٥ متراً ، وفي صدره نافذة كبيرة مستطيلة مربعة تطل على المدخل والمدينة واطارها وتطاريفها الخارجية دقيقة الصنعة محكمة النقوش يروق العين منظرها

وفي أواسط قمة القلعة منحدر مسدود الآن كان يُنزل منه الى انفاقها السفلية حيث كنيسة النصارى باقٍ بعض رسومها ماثلة من مثل حنية الكاتدرا واعمدة وحنايا اخرى . والى جانبها الغربي مخازن حديثة البناء تحوي اصناف الذخائر والادوات الحربية والى جانبها بئر الماء المعروفة بالساتورة كان ينحدر اليها بـ ١٢٥ درجة وعمقها الآن ٤٧ متراً . وذلك كله لا يناسب المدخل في شيء من حسنهِ ونقوشهِ وتصاويرهِ وكتاباته المختلفة

ومن قمة القلعة تنكشف لك المدينة مركومة بعضها فوق بعض ومن اعلى منارتها ينبسط نظرك الى مدى بعيد تجد منهُ منظراً بديعاً فاتناً يترك في النفس أثراً من السرور والانبساط وترى ما يكتنف حلب من الغياض والرياض الخضراء والسهول الخصيبة الواسعة وما يحيط بها من الربى والتلال احاطة الهالة بالقمر او السوار بالمعصم كأنها الحصون والمعاقل تحصنها وترد عنها الغارات العشواء

* * *

ذهب غالب مؤرخي العرب الى ان اول من بنى القلعة سلوقوس الاول الملقب بنيقاطور احد قواد الاسكندر الذي ملك على سوريا سنة ٣٠١ قبل المسيح . وارتأى اهل التحقيق ان بناتها الحثيون الذين استولوا على سوريا الشمالية في القرن السابع عشر (ق م) واستندوا الى ما خلّفهُ هذا الشعب القوي من الكتابات والتماثيل والرسوم العديدة في هذه النواحي ، واستدلوا فيما استدلوا عليه بما بين هذه القلعة و بين قلاع حمص وحماه وحارم من التشابه العظيم

والحق يقال ان سلوقوس اصلح القلعة فقط ، لما رمم بحلب بعض الترميمات ، و بنى فيها ابنية جديدة واطلق عليها اسم بيريا او باروّا . ولما فتحها كسرى انوشروان وشاد سورها بنى في القلعة مواضع

وعندما فتح ابن عبيدة حلب كانت قلعتها مرممة الاسوار بسبب زلزلة اصابتها قبل الفتح فاخربت اسوار البلد وقلعتها ولم يكن ترميمها محكمًا فنقض بعضهُ و بناهُ . وعني بها بنو امية و بنو العباس فتركوا فيها آثاراً ولما هاجم نيقفور ملك الروم حلب سنة ٣٥١ هـ امتنعت القلعة عليه وكان قد اعتصم بها جماعة من العلويين والهاشميين لحمتهم ، ولم يكن لها يومئذٍ سور عامر فكانوا يتقون سهام الروم بالاكف والبرادع

ولما تولاها الامراء الحمدانيون بنى بها سيف الدولة وابنهُ سعد الدولة مواضع وكذلك شاد بها بنو دمرداش دوراً وجددوا اسوارها وكذلك عني عماد الدين آق سنقر وولده عماد الدين زنكي بتحصينها وكذلك بنى بها طغتكين برجاً من جنوبها ومخزنًا للذخائر وكذلك شاد فيها نور الدين زنكي ابنية كثيرة

ولما ملكها الملك العادل سيف الدين الايوبي بنى بها برجاً وداراً لولده فلك الدين . ولما ملكها الملك الظاهر غياث الدين غازي حصنها و بنى فيها مصنعاً للماء ومخازن للغلات وسفح تلها ورصفه بالحجر الهرقلي واعلى بابها وجعل له جسراً ممتداً منه الى البلد ، وجعل للقلعة ثلاثة ابواب من حديد و بنى فيها داراً عرفت بدار العز قامت على دار للملك نور الدين زنكي كانت تسمى دار الذهب ولما احترقت سنة ٦٠٩ هـ جدد بنيانها وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها

وفي سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) تهدم منها عشرة ابراج مع بدنياتها فاهتم الاتابك شهاب الدين طغرلبك بعمارتهـا من اسفل الخندق الى قمتها . وفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) هاجمها التتر وهدموا اسوارها واستلبوا ما كان بها من الذخائر والمجانيق . وفي سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) اعادوا الكرة اليها فاخربوها خراباً شنيعاً ، واحرقوا المقامين فيها حتى لم يبقَ فيها من مكان للسكنى كما قال ابن الخطيب

واستمرت القلعة خراباً الى ان جدد عمارتها الملك الاشرف خليل بن قلاوون على ما سبق ذكره وذلك في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ولما فتح تمرلنك حلب في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) استباح القلعة نهباً وحرقاً فاستمرت ايضاً خراباً الى ان جاء الامير سيف الدين جكم نائباً اليها من قبل السلطان فرج بن برقوق في سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) فامر ببنائها والزم الناس بالعمل فيها حتى عمل بنفسه واستعمل وجوه الناس ، بحيث كان الامراء يحملون الاحجار على متونهم . و بنى البرجين اللذين على باب القلعة و بنى على سطحهما القصر الماثل الآن وذلك سنة ٨٠٩هـ و بنى البرجين اللذين في سفح القلعة من جنوبيها وشماليها (وقد سبق وصفهما)

ولما تمرد علي باشا جان بولاد على الدولة العلية سار مراد باشا لقتاله واخضاعه في سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٧ م) وتبع اثاره وحاصر المدينة فافتتحها واقام المنجنيقات على القلعة وراسل رؤساء المحافظين عليها واعداً اياهم بمناصب وخلع ، فاغتروا بها وسلموه القلعة ، فقتلهم عن آخرهم وفرَّ جان بولاد الى الاستانة طائعاً وقبل سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) لم يكن سورها محكماً ولم يكن مقام الملوك بها فاهتمَّ بعد ذلك من تولاها من الملوك والامراء بعمارتها وتحصينها وعصي فيها فتح القامي على مولاه مرتضى الدولة لؤلؤ ثم سلمها الى نواب حلب ، فعصي فيها ايضاً عزيز الدولة فاتك على الحاكم الى ان قُتل بها فصار الملك الظاهر وولده المستنصر يوليان والياً بالقلعة وآخر بالمدينة خوفاً من ان يجري ما جرى من عزيز الدولة . فلما ملك بنو دمرداش حلب سكنوا في القلعة وجرى مجراهم من جاء بعدهم من الملوك والامراء

ووصفها رهط من اهل الرحل والجغرافية من مثل ابن حوقل الذي اشتهر سنة

٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) فقال انها « غير طائلة ولا حسنة العمار » وشمس الدين المقدسي نحو سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) فذكر منها « سعتها ومناعتها وما فيها من خزائن السلطان » وابن الطيب السرخسي في رحلته سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) فذكر « سورها وبئرها التي ينزل اليها في ١٣٠ مرقاة ودير النصارى فيها » وابن بطلان البغدادي في سفرته سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)فذكر منها « مسجدها وكنيسنها » الى غير هؤلاء ممن اجمعوا فيها على ما قاله الرحالة ابن جبير والمسفار ابن بطوطة من امتناعها وارتفاعها ومطاولتها الايام والاعوام ، وقد قال فيها الخالدي شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالي وجانبها الصعبِ
يجرُّ عليها الجوُّ جيب غمامةٍ ... ويلبسها عقداً بأنجمهِ الشهبِ
اذا ما سرى برقٌ بدت من خلالهِ ... كما لاحت العذراء من خلل السحبِ
فكم من جنودٍ قد اماتت بغصةٍ ... وذي سطوات قد ابانت على عقبِ

روى بيشوف الجرماني في تاريخهِ عن احد حاخامي اليهود قال : انهُ رأى في القلعة كتابة عبرية مفادها (انا يوآب بن سرويا اخذت هذه القلعة) . ويوآب هذا تولى قيادة جيوش داود في سنة ١٠٥٥ ق م فاذا صحت هذه الرواية كانت هذه الكتابة اكثر قدمية من سائر كتابات القلعة ، ورجحت ما قالهُ المحققون من انها من بنايات الحثيين . واما الكتابات الباقية فهي عربية لا تتعدى القرن السابع للهجرة

وقد كان يتولى حراسة القلعة نفر من الشعب ويعرفون حتى الآن ببيت القلعجي الى ان انقرضت وجاقات الانجكارية وانتظمت احوال العسكرية ، فتولت المحافظة عليها الى ان عاد امرها في هذه السنة الى رجال الملكية . وقد تعاقبت عليها الرجوف والزلازل مرات عديدة يطول ايرادها وآخرها في سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٧٢ ، فتشعثت اسوارها وتهدمت ابراجها ، واصبحت اخربة دارسة واطلالاً بالية . وقد اهمل امرها من عهد بعيد فعادت الى ما تشاهد عليه الآن مما سبق وصفه في هذه المقالة فسبحان من بيده تصريف الامور واليه المصير

القس جرجس منش